

شفيق حبيب في ديوان " تعاويد من خرف "

الشاعر / محمود مرعي

(شاعرٌ وصلَ حافةَ اليأسِ والإحباط، ترى إلى أين بعد هذه المجموعة؟)

قسمَ الشاعرُ ديوانه إلى ستة أبواب هي: ضياعٌ في بحر الذات -
الطحالب - سقوطُ القناع - دروبُ السفر - أغلقتُ أبوابي -
معزوفةُ الخروج واللاعُودة.

مجموعُ القصائد في الديوان أربعٌ وعشرون قصيدة، تتوزعُ بين
الشعر العموديّ وشعر التفعيلة غير الجاري، وهذا هو المؤلف
الثاني عشر للشاعر شفيق حبيب؛ ويتميز الشاعر بالتزامه
عروضياً، وخبرتهُ في هذا المجال ليست موضع شكّ، وينطلقُ
أحياناً إلى شعر التفعيلة أو (شبه العروضي) وهو من
المُجيدين، وصاحبُ قريحةٍ غزيرة.

من القراءة الأولى للمجموعة، يظهرُ أنّ نفسَ الشاعر ونبرتهُ لا
تتغيّر من أول قصيدة حتى آخر قصيدة في الكتاب، وحتى قصائد
الرثاء فيها نفسُ الصّوت رغم جوّ الحزن والألم لفقد الأحبة.

من القصيدة الأولى يُدخلنا الشاعر معه في أجواءٍ من اليأس
والسوداوية التي تخيمُ عليه بسبب تلاحقِ النكبات على أمتهِ
وشعبه وحتى السلام، يراه عكسَ ما يراه الآخرون.

أنا لا أرى في الأرض سِـلماً

وإنما سأصبحُ عبداً في بلاطِ المحاربِ

يبيعونني الآمالَ، يغدورواؤها

عويلاً ودمعاً في بلادِ الطحالبِ

(ص ٧٦)

إذن شاعرنا مُصابٌ بالإحباطِ وخيبةِ الأملِ، ولندخلُ معه في
أجواءِ القصيدة الأولى:

ينسابُ في صوتي الضبابُ...

وعلى شراعِ سفينتي،...

في بحرِ ذاتي

ينطوي أملُ الإيابِ..

الليلُ يلفظني...

فيجرعني الضياعُ والاكْتئابُ.

(ص ٧)

وحتى لا يتركنا في حيرة التساؤل، يُجيب:

هذا أنا...

كأس من المرّ المُحنّظِلِ والعذاب...

هذا أنا...

طيّف تطاردهُ النوائِبُ

والسوائِبُ... والكلابُ..

شِلْوَقَضتْ أَشْلاوُهُ

بين التخذُقِ

والتمرُقِ في الشعابِ.

(ص ٨)

ثمّ يحاولُ شاعرنا تبرئةَ الذنابِ(السوائِبِ والكلابِ) فليس لها
ذنب :

لا الذنبُ ذنبكِ يا ذنابُ

بل ذنبُ كلِّ الراقصينِ.. الهائمينِ

على متاهاتِ الخرابِ.

(ص ٨)

الشاعرُ لا يدعُ القارئَ يلتقطُ أنفاسه فيدخله مباشرةً في حالة
التصوّر، وبعدها استعرض حالته وصوّر أوضاعه، يتساءل :

أين اخضر أربيع أوردتي ..
وأجنحتي التي طالت شماریخ السحاب ؟
أين الهوى ؟ .. والعشق ؟ ..
والصدرُ المشرعُ للتحدي والخصاب ..
ومواسمُ النار التي تهدي السنابلَ
والبلابلَ والجداولَ والغلالَ
وعطرَ أفرّاحِ الشبابِ ؟؟

ومباشرةً بعد هذه الأسئلة المولمة يأتي بما هو أشدّ إيلاماً :
ما للغريب سوى نعيقك يا غراب ..

(ص ١٠)

وأسئلته ليست لمجرد السؤال بل هي للوخز في الضمير.
ويمكن أن نقسم هذه القصيدة إلى ثلاث مراحل، الأولى:
التعريف... الثانية: التساؤل أو الوخز للإيقاظ... والثالثة:
التقرير...

وهذه هي ما سنورده الآن وهي آخر القصيدة :

لا الشمسُ شمسكُ
لا النجومُ نجومُ ليلى والربابُ

فاشربْ كؤوسَ القهرِ...
واستعذبْ ثَمالاتِ الشرابِ
واصبرْ على مُرِّ التلطي
والتشطي... والعقابِ
فالموتُ شَهدُ العاشقينَ القابضينَ
على القصيدةِ... والعقيدةِ... والكتابِ.

ولكَ أن تسألَ عن نجومِ ليلِي والرَّبابِ وإلى أين يتجهُ حنيئُ
الشاعرِ من خلالِ الإشارةِ إلى ليلِي والرَّبابِ والسببِ أنه لا يرى
سوى خواءٍ وانشطارِ :

كلُّ ما فينا خواءٌ في خواءِ
نتداعى حاضراً يغرقُ في البؤسِ
وأحوالِ الرِّياءِ

.....

ربُّنا المألُ
وفي أخلاقنا عهراً وفسقاً واهتراءً
نحن كالديدانِ في الظلمةِ
تعشى عندما يبدو الضياءُ

نحن لا نبني حضارات
ولكن نتغنى بتساويح الدعاء
نحن صحراء.. وجدب
وظلام.. وشقاء
فكرنا قحط كغير الصيف
منثوراً.. هباءً في هباء
كل ما فينا...
ركوع.. وسجود.. وانحناء.

(ص ٤٤-٤٥)

بهذا الوضوح الذي لا يحتاج ركضاً خلف المفردات، ولعل من
الواجب أن نشير إلى صدق الشاعر، وصدق رؤيته:

آه يا شعب الفراغ!
الضارب الأطناب فينا كالوباء...
كل ما حولك من صنع عقول الغرباء
ما الذي أعطيت يا مشلول للدينا
سوى ذلك ممزوجاً بآهات البكاء
أنت مهزوم وللمهزوم موت وفناء.

(ص ٤٦)

والآن سأستقصي "الأنا" لدى الشاعر فهي خيرٌ من يصوِّر هذا الإحباط، وهي ربما تكفي القارئ لفهم المجموعة كلها.

هذا أنا،

كأسٌ من المرِّ المحنَّظِ والعذابِ

هذا أنا،

طيِّفٌ تطاردهُ النوائبُ.. والسَّوائِبُ الكلابُ

شَلَوْتُ قِضْتَ أَشْلَاؤُهُ..

بين التخنُّدِ والتمرِّقِ والعذابِ.

(ص ٨)

.....

أنا فارسٌ،

ضاعت سنايكُ خَيْلِهِ

في حانةِ الزمنِ الوضيعِ

أنا شاعرٌ،

ضاعت قوافي شعري

في هزَّةِ الرِّدْفِ الخليجِ

(ص ٢١)

.....

أنا أيها الحلاجُ زلزلةٌ

يُخبئُها نجيعي.

(ص ٢٢)

.....

أنا ورقٌ خريفيُّ

تطايير كاشتعال الريحِ في أحضانِ تشرينِ.

(ص ٢٤)

.....

أنا صدأ..

أنا صدأ..

وصوتُ غاصٍ في لُجٍّ

رُكاماً صارخَ النبرِ

رغيفُ الخبزِ من رملِ

وماءِ النهرِ مأسونُ

وأيامي مُحنطةٌ

تنوءُ على لظى الأوباءِ، والصحراءِ، والفقْرِ..

(ص ٣١)

.....

إنني أضعتُ ملامحي ، وتفردُني وجوارحي
وغدوتُ عنواناً على صدر النوائبِ .
(ص ٣٨)

.....

أنا شاعرٌ يقاتُ من مرّ الهزيمة .
(ص ٣٩)

.....

إنني كفرتُ بذاتِ ذاتي (ص٤٠) / إنني أكرهُ نفسي / حاضري مرأةً نفسي / كلما رُمْتُ
إنعتاقاً / شدّني جهلي لرمسي (ص٥٢) / أنا ما كنتُ يوماً كالبعيرِ / على رمالِ البيدِ
في نجدٍ وفي نجرانٍ . (ص٦٣) / أنا الباقي / أنا الباقي / إذا انهارَ الجرادُ على دروبِ
/ البييفِ ... والكوكا/وماك- دونالدزَ والأجبانُ / أظُلُّ على الطوي شعبانُ
(ص٦٦) / أنا لا أرى في الأرضِ سلماً وإنما / سأصبحُ عبداً في بلاطِ المحاربِ
(ص٧٦) / ألا أيها البعد! / هذا أنا / أنادي طولَ الدّيارِ / وفحمَ الدّمارِ / وخيلَ
القبائلِ في المنحدَرِ (ص٩٤) / ألا أيها السّلمُ !! / هذا أنا ... جريحٌ يودّعُ ما قد
غبرَ . (ص٩٥) / يا رملَ ضياعي / في الصحراءِ ... / إنني منثورٌ كرمادٍ / في قبضةِ
عاصفةٍ هوجاءٍ (ص١٠٤) / سرداباً أضحت دائرتي / وأنا شرتقةٌ ضامرةٌ / تملأها
الغازُ حيّري / وينوحُ خواءُ . (ص١٠٥) .

إنني سجينٌ كالهزارِ ومأملي

هذا الفضاءُ الرَّحْبُ خلفَ إساري

(ص ١١١)

إنني أضعتُ العمرَ خلفَ سَرابها

وأضعتُ دربي في شِعابِ قفاري

(ص ١١٣)

هذه هي "الأنا" لدى شاعرنا شفيق حبيب وهي كما يراها القارئ مُحِبَّةٌ تَتَفَجَّرُ حَسْرَةً وَأَلَمًا وَلَا تَرَى مِنْفَذًا وَاحِدًا لِلأَمَلِ، حتى أنني لم أَعثر في المجموعة كلها على قصيدة غزلٍ واحدة. هناك ثلاثة أبياتٍ جاءت فيها "الأنا" لدى الشاعر بشكلٍ مُغاير ولكنها في نفس الوضع والواقع.

- البيت الأول:

إنني انتصبتُ معَ القوافي شاهرًا

حرفي بوجهِ الظالمِ الجَبَّارِ

والواقع هو الظلم، وما دام الظلمُ موجودًا فإنَّ هناك ظالمًا ومظلومًا، والشاعر نفسه في مواجهة الظالم.

- البيت الثاني:

أنا في سمانك يا جليلي راصدٌ
أنا في فضائك صيحة الأحرارِ

وهذا البيت ينطلق من نفس الرؤية.

- البيت الثالث:

هذا أنا صوتٌ يشقُّ صدورهم
ونعيهم كأننا في أعصابي

وهنا أيضاً الشاعر في مواجهةٍ معهم ولكنّ نعيهم كالنار في
أعصابه.

لقد أثارُ أن أذكرَ في المقالة جميعَ الحالاتِ التي وردت فيها
"الأنا" لدى الشاعر لأثبت ما زعمتُ من أن الشاعرَ يقفُ على
حافةِ اليأس والإحباط مما يرى حوله، ويصحّ بالتالي أن نطلقَ
عليه "شاعر الوجد"؛ ولعلّ قوله الآتي يختصرُ حالته :

أشعلتُ مجامرَ أقلامي...

وحملتُ قناديلي ظهراً...

أبحثُ عن موتى أحلامي...

ذاتي هائلة... شاحبة...

تبحثُ عن ذاتي وحطامي...

جريدة بانورا ما النصر اوبى

١٩٩٦-٧-١٩